ـأثر "صحيفة معهد الدّراسات الإسلامية في مدريد" في نشر التراث الأدبي الأندلسي للأعداد من (١ ـ ١٠)

(الأدب الأندلسي ، الشّعر ، النّثر)

المدرّس الدكتور قصي عدنان سعيد الحسيني

الجامعة المستنصرية/ كلية الآداب /قسم اللّغة العربية

The impact of the scripture of Islamic Institution Studies in Madrid on the publication Andulian literary heritage

Investigation and publication of texts of poetry and pros .

Al - Mustansiriayah University / College of Arts /

Arabic Department

الملخص العربي

إنَّ لتأسيس صحيفة معهد الدِّراسات الإسلامية في مدريد الأثر الكبير في نشر وإشاعة التُّراث الأندلسي عموماً، والأدبي بصورة خاصَّة، وقد أجريت البحث على (١٠) أجزاء من تلك الصَّحيفة من العدد (١ ـ ١٠)، وقد ساعدت المجلَّة على نشر التُّراث الشِّعري مثل: نشر تحقيق ديوان الملك يوسف الثَّالث ت ٨١٩هـ، لعبد الله كنون الحسني، وكذلك: ديوان الرَّصافي البلنسي بتحقيق د. إحسان عبَّاس، أمَّا نشر التُّراث النثري فكان العمل الأوَّل: أمثال العامَّة في الأندلس لأبي يحيى الزَّجَّالي ٦١٧ ـ ٦٩٤هـ،بتحقيق محمَّد بن شريفة، والعمل الثَّاني: مقامة العيد لابن المرابع الأزدي،

Abstract

The magazine of (Institute of Islamic Studies in Madrid) considers one of the best Scientific discrete magazines in the world that grant Andatusian Heritage (Morally and historically) trying to pay a lot of attention and Highlights with Objective analysis (for ten Publications) of it with an introduction of Specialists with this magazine that reduced from the time of reading more than half o century.

The first section deals with the fruitful of poetry that has been achieved before poems of Granada king (Yosif the 3rd) by the fulfillment of (Abdullah kanun) and achievement poems of AL-rusafi AL-Palseny of Professor . (Ehsan Abbas) .

The second section (fruitful of prose) deals with essay of Eid for (Ibn aL-Marabe Alazdy) and public Proverbs in Andalusia for Professor (Abdulaziz AL-Ahmany).

Finally, the most important results which was achieved by this research had been concluded.

المقدمة

"صحيفة معهد الدّراسات الإسلامية في مدريد" محاولة تعريفية :

إنّ فكرة إنشاء "المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد" كانت مما اقترحه الدكتور طه حسين متأملاً في ذلك المعهد ما سَيُنْجزهُ من دراسات في مضامين الحضارة الإسلامية من تراث الأندلس الفكري والدّيني من فقه وأُصول وفلسفة إسلامية .

بعد أن بدأت مسيرة المعهد وأصبحت له فعاليات علمية على واقع الحياة العلمية والدينية ظهرت الحاجة الماسّة إلى تأسيس مجلة تُعْنى بنشر تلك الفعاليات والنشاطات ؛لتصدر عن المعهد ، حتى أُلْحِق ـ فيما بعد ـ بالمجلّة الموضوعات الأدبية والتأريخية والفلسفية والجغرافية ، فكانت مجلة المعهد كما جاء في مقدمة العدد الأول / المجلّد الأول للدكتور علي سامي النشّار ، مدير "المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، وأول رئيس تحرير لتلك المجلّة عام (١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م)، فيقول :

(وكما كان إنْشاء المعهد ضرورة قصوى ؛ لدراسة الحضارة الإسلامية في إسْبانيا على أيدِ بُحاث عرب ، كانت الحاجة أيضاً ماسّة إلى نشر مجلة للمعهد حاوية لأبحاث حلقته وحلقات الإسبان العلْميّة ، بل إنّ نظرة المعهد إلى التعاون سَمَت إلى أفق أعْلى ، فطلبنا من علماء غير عرب وغير إسْبان ، أن يُشاركونا أيضاً في كتابة مقالات وأبحاث لمجلتنا . . . ؛ ولذلك نرى في مجلتنا أبحاثاً كتبها إسْبان وأخرى كتبها فرنسيون وثالثة هي أقلّها كتبها مصريون وعرب) . (١)

عنيت المجلة بالأدب العربي الحديث ، وقد ضمّت نتاجات رائعة قد شغلت حيزاً في الوسط الأدبي العربي وقتذاك ، منها : كتاب " الأيام " للدكتور طه حسين و"يوميات نائل في الأرياف" لـتوفيق الحكيم ، وقد ترجمهما إلى الإسبانية اميليو غارسيا غومس ، ونشرا تحت عنوان "روائع المؤلفين العرب المعاصرين" ؛ وكان هدف المعهد "تعريف الناطقين باللغة الإسبانية بثمرات الفكر العربي الحديث" .

لقد كان من يُمن طالع المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، أن حْظي منذُ نعومة مولده . . . بالمساندة الأدبية والعلمية السديدة التي قدّمها عميد بالمساندة المُسْتشرقين الإسبان دون أميليو غرسية غومز لكلِّ مَنْ تولى مسؤوليته ابتداءً من أستاذنا المرحوم الدكتور عبد العزيز الأهواني الذي كان يدور معه في شوارع مدريد بحثاً عن مقرٍّ مؤقت مناسب ، ويزور معه دواوين الحكومة الإسبانية ؛لتذليل عقبات الأذن الرسمي بإقامة أول مؤسسة مصرية عربيّة تحمل اسم الدراسات الإسلامية ، بعد الطلاق التأريخي البائن الّذي فصل لعدّة قرون بين إسبانيا والإسلام ، وانتهاءً بتدخله الحاسم ؛ لاختيار أربعة من أساتذة ممن تولّوا إدارة المعهد لعضوية "مجمع التأريخ الملكي الإسباني" هُم الأساتذة : "أحمد" هيكل ، و"أحمد مختار العبّادي" ، و"محمود علي" مكي ، وكاتب السطور "صلاح فضل" (٢)

لقد أولى الباحثون الإسبان عنايتهم بتراث "الأندلس" فكراً وأدباً ولغة وتأريخاً وجغرافيةً وفلسفةً ، وكلّ ما وصل إلينا من مخطوطات تخصُّ الأندلس ، وبخاصّة التراث الذي نجا من محرقة (إليزابيث وزوجها فرناندو) ! وما نتج عن ذلك التراث أثراً وتأثيراً ؛ لأنّهم لاحظوا في ذلك التراث الشخصية الإسبانية الحديثة التي لا يوجد لها شبيه في جميع دول القارة الأوربية ؛ لهذا جاء اهتمامهم به كان كبيراً .

وقد ضمَّ بحثي هذا مقدمة ومبحثين وخاتمة تضمُّ نتائج البحث .

المبحث الأول :

تناولتُ فيه نماذج من الأعمال المُنْجزة على صعيد تحقيق الشعر الأندلسي مبيناً أهمية ذلك العمل الشعري في الأدب الأندلسي ، ويضم :

ـ ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث ت ٨١٩هـ ، تح : عبد الله كنون الحسني ، ع ١ ، س ١ ، ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٤م .

ـ ديوان الرصافي البلنسي ، تح د. إحسان عبّاس ، مج ٩ ـ ١٠ ، س ١٩٦١ ـ ١٩٦٢م .

المبحث الثاني :

تناولتُ فيه الأعمال المُنْجزة على صعيد الأدب النثري بالتحليل ، مبيِّناً أهمية ذلك العمل ضمن الأعمال النثرية في الأدب الأندلسي ، ويضم :

ـ المقامات الأدبية : مقامة العيد ، لأبي محمد عبد الله الأزدي المعروف بـ(ابن المُرابع) ، ع ١ـ٢ ، س ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م .

ـ الأمْثال : أمثال العامّة في الأندلس ، عبد العزيز الأهواني ، مج ٩ ـ ١٠ ، س ١٩٦١ ـ ١٩٦٢

وبهذا العمل نكون قد أزحنا الستار عن أثر "صحيفة معهد الدّراسات الإسلامية في مدريد" ، في نشر التراث الأدبي الأندلسي ، ولا سيما أنّ أغلب الباحثين والأساتذة من المخْتصين بالأدب الأندلسي ، وتراثها لا يعلمون شيئاً البتة عن مفردات ـ الصحيفة ـ هذا التراث الدفين ـ ؛ بسبب عدم وصول هذه المجلة وتوافرها بين أيدي الباحثين ، وقلّة من يبحث عن مجلّة اختزلت من الزمن قُرابة ستين عاماً ، وهي في ذلك المكان النائي عند أقصى الغرب الأوربي .

المبحث الأول

نشر الأعمال المُنْجزة على صعيد تحقيق الشعر الأندلسي وأثر ذلك العمل الشعري في الأدب الأندلسي .

ديوان الرصافي البلنسي *:

نشرت الصحيفة (٣) تعريفاً وتقريضاً لعمل الدكتور إحسان عباس لـ(شعر أبي عبد الله بن محمد بن غالب (ت ٥٧٢ هـ)والملقب بالرصافي البلنسي) في ديوان ضمّ (٦٢٦) بيتاً بين قصائد ومقطعات ونتف وأيتام، وقد اشتهر البلنسي بكثرة مقطعاته

التي تعدّ سمة بارزة في ديوانه ، وكان الرصافي ينظر بعين الاحترام لوطنه الأم، ومسقط رأسه (بلنسية) التي فارقها، فارتسمت صورتها في مخيلته تذكره بمهد الطفولة وأيام الصِّبا ، وظلّت خصبة تنبض بالحياة حتى وجد في مدينة (مالقا) ظلاً لمهده الأول (بلنسية)، وقد امتازت طريقة البلنسي في شعره بالتنقيح والتجويد، وهذا مسلك ممدوح في الشعر، وقد جرت عليه سُنّة الشعراء الكبار أمثال : (زهير بن أبي سلمى) رائد مدرسة الشعر الحولي المحكك في المشرق الإسلامي ، ووصل به ـ أي الرصافي ـ لأن يُقرن بابن الرومي ؛ لإيجادته في استخراج الصور الجميلة التي تعتمد على التوليد والاختراع كقوله في غلام حائك (٤)

غُزَيِّلٌ لم تزلْ في الغزْلِ جائلةً . . . . بنانُهُ جولانَ الفِكْرِ في الغَزَلِ

ما إنْ يَني تَعبَ الأطرافِ مُشْتَغِلاً . . . . أفْديهِ مِنْ تَعبَ الأطرافِ مُشْتَغِلِ

جَذْباً بكفَّيْهِ أو فَحْصاً بأخْمَصِهِ. . . . . تَخَبُّطَ الظَّبيِ في أشْراك مُحْتَبِلِ

وقوله في وصف الأصيل (٥)

وكأنَّ الشّمسَ في أثنائِهِ . . . . ألْصقت بالأرضِ خدّاً للنزولِ

والصَّبا تَرْفَعُ أذيالَ الرُّبَى . . . . ومحيَّا الجوِّ كالسيفِ الصَّقيلِ

حبَّذا منزلُنا مُغْتَبَقًا . . . . حيثُ لا ينظرنا غيرُ الهديلِ

طائرٌ شادٍ وغصن مُنْثَنٍ . . . . والدُّجى يَشربُ صهباءَ الأصيلِ

كان الرصافي البلنسي ذا إباء نفسي ، وعلى مستوى من الرقي الأخلاقي بحيث لم يجعل من شعره متكسباً ، (وباستطاعته أن يحرم الأمراء والملوك أكثر مما يستطيعون هم أن يحرموه ؛ لأن في يده وسائل التخليد) كما جاء في مناشدته للوزير الوقشي (٦) ، وكان قانعاً مما أفاء الله تعالى عليه من رزق يسير ! فيقول :

متى أرسلت أيدي الملوك هباتها . . . ولم يُوصلوا جاهاً ولم يجزلوا ذكرا

فقد سرّني أنّي حرمت علاهم . . . حلى مُحْكمات تُخْجل الأنجمِ الزّهرا

وكشف الديوان عن شخصية حملت صفات راقية من السمو الأخلاقي ، والترفع عن الدنايا والتكسب بالشعر ، الرصافي البلنسي (استنكف أن يتخذ من الشعر خطّة ، ولتوضيح هذا العزم لابد من أن نتذكر أن الشاعر يومئذٍ كان أحد رجلين :

ـ رجل مرتبط ببلاط أمير أو وزير فهو ذو مرتب مقدّر لا يتجاوزه إلّا إلى شيء من الهبات والهدايا .

ـ ورجل جوّاب يبيع شعره ، كما تباع السلعة على أبواب الأمراء .

وقد أبى الرصافي أن يكون أحد هذين ، ومع ذلك صار الأكابر يجزلون منحه ويخطبون مدحه ، وهو بصناعته مشتغل . . .) (٧) ، فيُنْشد في هذا فيقول :

صون الفتى وجهه أبقى لهمّته . . . . والرزق جار على حدٍّ ومقدار

قنعتُ وامتد مالي فالسماء يدي . . . . ونجمُها دِرهَمي والشّمسُ دينار ي

وقد وصف لسان الدين ابن الخطيب عفّة الرصافي البلنسي وخُلُقه بقوله :

(مقبلاً على ما يعْنيه من التعيش بصناعة الرفو التي كان يعالجها بيده ، ولم يبتذل نفسه في خدمة ، ولا تعرّض ؛ لانتجاع بقافية ، والقناعة مالاً ، على شدّة الرغبة فيه ، واغتنام ما يصدر عنه)(٨)

وكم تأريخنا ومجتمعنا به حاجة إلى هكذا شعراء يحملون إباء النفس والكرامة الإنسانية قانعة بما أعطاها الله تعالى حتى يعطي لموهبة الشعر شكله الفني في المجتمع .

لقد أنجب شرق لأندلس ، وفي أوائل عصر الموحدين ، فكان في العصر الأول ابن خفاجة وابن أخيه المشهور بابن الزّقاق ، وكان في العصر الثاني أبو عبد الله الرصافي ، وهؤلاء جميعاً من الرونق الشعر الجزل المبتعدين عن ميدان الموشحات والأزجال ، مع أن الرصافي كان يُعاصر إمام الزّجّالين ! وبحق يُعدّ الرصافي الوريث الشرعي ـ كما يقول الدكتور إحسان عباس ـ للمذهب الذي اختاره ابن

خفاجة وابن الزقاق بشأن (القصيدة والمقطوعة) ، فالمقطوعة : تقوم على طلب الصور ـ ؛ لتقارب أجزائها ـ وتهدف إلى إيجاد التعليل حسناً كان أو مستهجناً .

أما القصيدة : فإنها بناء مكتمل يختار فيه صاحبه سياقاً من الجزالة البدوية ، ويأتي بالصور بين الفينة والأخرى .

فلما جاء ابن خفاجة أقام القصيدة على قاعدة المقطوعة ، فكان يحشد الصور المتراكبة ـ التي تُتعب القارئ ـ فكان ابن الزقاق كذلك ، فمثلاً في القصيدة البدوية يجري كما يجري الشعراء في هذا النسق ، أما المقطوعة التي يُنشدها ابن الزقاق فيُراد بها توليد المعاني ، أو تعليل ظاهرة ، فيقول :(٩)

ومـا شـقَّ وجنتـه عابثـاً . . . . . ولكنهـا آيـة للبشـــــر

جـلاهـا لنـا اللــه كيما نـرى . . . . بها كيـف كـان انشقاق القمـر

وعلى هذا سار الرصافي البلنسي مترسماً خطى ابن الزقاق في المقطعات ؛ لتوليد المعاني الجديدة وحُسن التعليل، وإبراز الصور المبتكرة ؛ ولأجل هذا شبهوه بابن الرومي الذي كان في أغلب معانيه المولدة عقلية في طابعها ، أما معاني الرصافي البلنسي فهي تصويرية تخيلية ، كما في وصف الدولاب والحمامات والأنهار والزروع التي كثُرت في موضوعات الشعر الأندلسي .

ويلتقي الرصافي بابن خفاجة في قلة شعر المديح لديهما ، ومن ثم أتجه ابن خفاجة إلى شعر الطبيعة ، ومال الرصافي إلى الرقة الجميلة، فهو رقيق الحنين غائم الأسى وهو يحب الطبيعة الجميلة حين تكون جزءاً من وطنه الذي حرمه كما في قصائده (أرقامها ٢١ و٢٢ ٤١و و ٤٨ و ٥٦ و ٥٧) (١٠)

وأنشد يقول متشوقاً إلى وطنه بلنسية :

بلادي التي ريشت قويديمتي بــها . . . . فريخاً وآوتني قرارتها وكـراً

مبادئ لين العيش في ريّق الصبا . . . . أبى الله أن أنسى لها أبداً ذكراً

وتناول الرصافي أغراضا أخرى مثل : المراسلات بينه وبين أصدقائه في أرجاء الأندلس ، واشتهر في الرثاء والهجاء أيضا .

وقد نشرت إدارة مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد عام ١٩٦١ ـ ١٩٦٢) في عدديها الأول والثاني عرضا للديوان ونقده ، وكان النقد غاية في التصويب العلمي الصحيح .

وقد نبَّهت ـ المجلة ـ على الكمِّ الشعري الذي فات الدكتور إحسان عباس والموجود في مخطوطة كتاب (الإحاطة في أخبار غرناطة) ١٦٧٣ للسان الدين ابن الخطيب والمحفوظ وقتذاك (في مكتبة الاسكوريال تحت رقم (١٦٧٣) وصحيح مثل هذا التصحيح والتنبيه ، وعند رجوعي إلى كتاب الإحاطة المطبوع بتحقيق الدكتور علي الطويل (هامش مج ٢ / ٣٥٧ ـ ٣٦٦) فكانت القصيدة الأولى قد ضمّت (٤٧) بيتا ، والثانية ضمّت (٤٩) بيتا ، والثالثة (١٩) بيتا ، والرابعة (٩) أبيات ، والخامسة (٨) أبيات على شكل قطعتين وقعت كل قطعة في (٤) أبيات ، وثلاث نتف ، اثنتان في بيت أي مجموعها (٤) أبيات ، وأخرى بثلاثة أبيات إذن المجموع الشعري الذي ضمّته الإحاطة يقع في (١٥١) بيتاً ، ويعدّ هذا أكثر من ربع الرقم الذي جمعه الدكتور إحسان عباس في ديوان الرصافي البلنسي ،و لكنه حين أعاد طبع ديوان الرصافي البلنسي عام (١٤٠٣ ـ ١٩٨٣) قد ضمّ هذا المجموع الشعري للرصافي الموجود في الإحاطة ، وزاد عليه فأصبح مجموعه الشعرية في الديوان قد بلغ (٧٢٢) بيتاً (١١)

وقد زودت هذه الطبعة (١٩٨٣) بفهارس تفصيلية في آخر الكتاب فهرس للموضوعات الشعرية ، وفهرس للأعلام والأماكن والجماعات .

وقد اعترض صاحب المقال على تسمية هذا المجموع الشعري الذي جمعه الدكتور إحسان عباس تحت اسم (ديوان الرصافي البلنسي) فيقول : (فالحق أن من الجرأة في رأينا إطلاق مثل هذا الاسم على ما يقوم الباحث بضم شتاته مهما كان المقدار الذي يصل إليه في جمعه ، فالذي نفهمه من (ديوان الشعر) هو الكتاب الذي يضم بين دفتيه شعر شاعر ، والذي جمعه صاحبه ، أو أحد المعتنين بشعره ، فأفرد له كتابا خاصا ، ولا بأس بعد ذلك بأن يقوم الناشر باستدراك ما تجده في المصادر الأدبية مما لم يرد في الديوان فيلحقه به ويضمه إليه ، إما أن نأخذ البيتين أو

المقطعات الصغيرة التي انتخبها المؤلفون في كتبهم ، فتضم بينها ، وتطلق على ذلك اسم (ديوان) فهو أمر لا يخلو من اعتساف ...)

وأخذ على إحسان عباس حين أطلق على الرصافي البلنسي بأنه صاحب مذهب المقطعات والقصائد حين اختطه لنفسه منذ عهد ملوك الطوائف ، والعلة في هذا المأخذ على الدكتور إحسان عباس كما يقول صاحب المقال :

(فهذا حكم لا نقول : إنّه خاطئ أو مصيب ، ولكننا نخشى أن يكون مبنياً على هذه القطع المتفرقة المقتضبة التي عثر عليها الأستاذ الجامع من شتى المصادر ، وما يدريه فلعل هذه المقطعات ليست إلا مابقي من قصائد طويلة كانت ثابتة في ديوانه الذي كان على ما يقول الدكتور إحسان " متداولا في أيدي الناس متنافسا عليه "

وأخيرا فالحق إن جمع الدكتور إحسان عباس قدّم للمكتبة العربية عامة وللمكتبة الأندلسية خاصة عملاً يُحمد عليه إن لم يكن قد أحاط بجملة أحوال الرصافي البلنسي ، فقد أعطانا فكرة عن عصره ، وموهبته الشعرية ، وسمته الأخلاقية التي كانت سائدة عند أدباء مالقة .

ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث ت ٨١٩ هـ (*)

يُعدّ ظهور ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث ت٨١٩ هـ علامة مُضيئة ، وإشراقة أمل جديد في حياة الشعر الأندلسي مع تزايد محنة المجتمع الأندلسي أرضاً وشعباً وسلطةً في انحسار مساحات الأندلس ، وسقوط والمدن والكور بيد النصارى ، وما يترتب على هذا السقوط من مآسٍ ومحن على المسلمين الذين يقطنون تلك الممالك التي أمست تحت سلطة النصارى ، وانسحب الوضع العام القلق هذا على مجريات الحياة اليومية الأندلسية ، وما يتبع ذلك من فعاليات اجتماعية واقتصادية وثقافية

وأدبية .... ومن ثم أصبح شغل الأندلس الشاغل هو : كيف يُحافظ على أرضه التي هي عنوان بقائه وهويته الإسلامية ؟!

وفي ظل هذه الأجواء اعتلى عرش غرناطة الملك يوسف الثالث حفيد الغني بالله وهو الثالث عشر من ملوك بني الأمم النصريين أصحاب غرناطة .(١٢)

أهمية الديوان في التراث الأدبي الأندلسي

أشرت فيما سبق إلى أهمية هذه التحفة النادرة وطبيعة الأوساط القلقة التي كانت تلفُّ أجواء الأندلس ، وقد قيّض الله سبحانه وتعالى من يُقدم مخطوطة الديوان ويُظهرها إلى العالم العربي للمتخصصين والمهتمين بتراث الأندلس ، وبهذا الصدد يقول الأستاذ عبد الله كنون الحسني محقق الديوان : (ديوان ملك غرناطة هذه التحفة النادرة بل الذخيرة الثمينة التي عُثِرَ عليها بناحية (سوس) صديقنا العلّامة الجليل السيّد المختار السوسي عند الفقيه العالم السيّد عبد الله الكرماني ، وأهداها لنا بمناسبة زيارتنا لمراكش في ربيع سنة ١٣٦٩ هـ . رجاء القيام بنشرها ، وتقديمها إلى العالم العربي طرفة أدبية يعزّ لها الكفاء ؛ لأنها على ما يظن صديقنا لا ثاني لها في العالم) (١٣)

يقول كنون الحسني : لقد كان آخر عهدنا بالشعر الأندلسي (الجيد) هو تأريخ وفاة لسان الدين ابن الخطيب (ت ٧٧٨ هـ) ؛ لذا ترى منْ أرخّ للأدب العربي الأندلسي يقفون عند لسان الدين ابن الخطيب ، كما فعل الإسكندري في كتابه : (الوسيط) ، والزيات في كتابه (تأريخ الأدب العربي) ، أما الأستاذ مصطفى صادق الرافعي فذكر في كتابه (تأريخ أدب العرب) الوزيرين ابن زمرك وأبا يحيى بن عاصم الذي يقال فيه :

ابن الخطيب الثاني ، وغيرهم من الشعراء الذين ورد ذكرهم في نفح الطّيب بعد لسان الدين، لكن كل هؤلاء لم يسدّوا مسدّ (ابن الخطيب) مع أن أطيعهم شعراً وأكثرهم إحساناً هو ابن زمرك .

وكل التراث الشعري لهذه الحقبة الزمنية عدا ممن ذكرنا ، ويلحق بهم الأُمراء والملوك ، فيُعد من شعر السُّوقة ، وقد عقد الرافعي فصلا في كتابه عن أدباء ملوك الأندلس) .

ويُرجح الأستاذ الدكتور كنون الحسني خطورة (ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث) هذا الكشف في عالم الأدب العرب إلى أربعة عناصر هي(١٤)

ـ أولاً : كونه يعرِّفَنا بشاعر أندلسي ضرب في الشعر بسهم صائب ، وهو ملك !

ـ ثانياً : كون هذا الشاعر الأندلسي الملك ساهم في جميع أغراض الشعر العربي وخاصة الشعر الحماسي والسياسي .

ـ ثالثاً : كون شعر هذا الملك الأندلسي مجموعاً كله في ديوان كبير يبلغ عدد صفحاته في نسخته المخطوطة (٣٦٥) صفحة .

ـ رابعاً : كونه العصر الذي تنكرت فيه الأندلس للعروبة ، وكانت فيه تلفظ نفسها الأخيرة هناك .

تناول شاعرنا الملك يوسف الثالث أغلب موضوعات الشعر العربي المعروفة من الغزل والنسيب والوصف والحماسة والفخر والمدح والرثاء ، ومن قراءة القصائد: (تلوح على كلامه شارة المُلك ونخوة الرياسة وخصوصاً في القصائد الفخرية التي يقولها في وصف المعارك الحربية والمنازعات السياسية) (١٥)

ومن نظمه في ذكر نسب الملوك والفخر بالمُلك : (١٦) :

ألستُ سليل الصّيد من آل حميرْ . . . وخير ملوك الأرض قوماً ولا فخرُ

لنا المنصب الأعلى على كل منصب . . . لنا العزّة القعساء والغرر الغرُ

لنا الهضبة الشمّاء سامية الذرى . . . لنا الراية الحمراء يهفو بها النصرُ

لنا المُلك والتمليك والعز والعُلى . . . لنا الجبر والإعدام والنفع والضرّ

مكارم أعيت كل من رامّ حصرها . . . وهيهات ما للشهب في أفقها حصرُ

على أن هذا الدهر مازال حاسدا . . . كما قد علمتم من له الصيت والذكرُ

ومن براعة نظمه حين أنشد أمامه أبياتا للشاعرة حمدونة بنت زياد المؤدب : (١٧)

ولمـا أبـى الواشـون إلا قتالنـا . . . . وقلَّت حُماتـي عنـد ذاك وأنصـاري

رميتـهم مـن مقلتـي وأدمعـي . . . ومن كبـدي بالسـيف والسـيل والنـار

وجوابــه :

إلى الله أشكو ما بقلبي من ألأسى . . . وما قد طوت من شرح حالي أسراري

تفـرَّق أحبـاب وجمع حواسـد . . . وكثـرة أعـداء وقلـة أنصـــــــــارِ

ولعلّ الفتح الكبير ـ فيما أراه ـ في ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث الذي لم ينتبه إليه الأستاذ المحقق عبد الله كنون ، أو أنه قد تغافل عنه لأمر لا أعرفه !! هو نظم الملك الشاعر يوسف الثالث قصيدتين في واقعة الطَّف ، وذكر الإمام الحسن (عليه السلام)، وقتله بالسُّم ، وذكر شهيدها الإمام الحسين (عليه السلام) ، وذكر شهداء الطف ، ووصف لوعته من جرّاء تلك الفاجعة الأليمة التي ارتكبها آل حرب وآل زياد .

ويرى الحق في التشيع ، وأن نُصرة آل الرسول حتى يرجو بها الحَسنيين : (١٨)

ضحكـتْ لمّـا رأتنـــي . . . نـاحلاً قد حـالَ لونـــي

ســاهراً ليــل . . . . . ناشــدا بالخِيــفِ دَينـــي

جيــزة أودوا بـقلبــي . . . يـوم حلّـــــو ا العلمينِ

فلـــهم منـــي ولاء . . . واعتـقـــاد دون مَيـــــنِ

لهف نفسي لو شفاني . . . عنـــهم عــضّ اليـديـنِ

ســاعدينـــي يا سماء . . . بـــــدمـوع المُـرزمَيــنِ

كربـلا هيَـّج كـربي . . . و . . . أصـــــلُ حيـنِ

بعد ضيف الطف تطفي . . . لـوعتــي أدمـع عيــن

بـأبــي منــهم وجـــوه . . . قُـدِّستْ عن كـلِّ شَـيْنِ

أشعروا الموت جهارا . . . وثـــــــووا كالفرقـديـنِ

كيـف أنسـى وحيـاتي . . . بعــد نـــور النــاظـرينِ

آل حـــرب وزيـــاد . . . خطبـهم ليـــس بـهيـــنِ

قطّعــوا بالسُّـم قلبي . . . ثــم ثنـّـــوا بالـــــرديـنِ

وبـــدور مــن بينــهم . . . صُـرِّعـوا مـابيــن ذيـــنِ

بعـدهـم أهنـــأ بـعيـش . . . أو أرى قُـــــرّة عيـــنِ

يــا خلـي القلـب هلّا . . . بـانَ عـن حينـــك حـينـــي

ليس ... ... يَـــوْمَ عَـرْضِ الثَّقَـليـــنِ

وأنـــا الشـيعة حقـــاً . . . . وِحُســـينِ

و... قيـــس وســعد . . . يـــومَ بَـــدْرٍ وحُـنـيـــنِ

فعـليهـــم ... صلوات . . . شُـفِّعَـتْ ... ...

وكذلك من منظومنا ـ والكلام للملك يوسف الثالث ـ ضراعة وتوسلا : (١٩)

تـطاول ليـلـي بـالأبـرقيـــن . . . ونـام الخـلـي عـن العـاذليـــنِ

وبـتُّ أسـاجـل شـهب الدُّجـى . . . بمحض النُّضار وذوب اللجينِ

واسـتوقـف البـرق مستفهماً . . . أكـابـد مــن خفقــه جمـرتيـنِ

فأحـرق قـلبي بـذات الغضـى . . . وأهمـــل عينـــي بالمــازبيـنِ

فيـا حـفظ اللّــه ... ... وحيـا المُحصـب والمشعريـنِ

وخَصّ العراقيَ مِنْ دُونهم . . . سـلامَ مَشُـوقٍ إلـى الـرافـديـنِ

وقولاً غريباً عَدَتْهُ الذنُوبُ . . . فـأهـدى هــواهُ لقبـرِ الحسـينِ

لئن حلَّ جسمي بالمغربين . . . فقـد صـار قلبـي بالمشـرقيـنِ

بِسبْطَيْ نبيَ الهُدى أبتغي . . . وأرجُو الشفاعةَ من دُونِ مَيـنِ

تَخِـذْتُ محبَّـتَـهُـمْ عُـدَّةً . . . لأخـذِ النواصي وَعَـضِّ اليدينِ

وحسبيَ الشفيعُ إذا ما الذنوبُ . . . أحاطتْ بنفسـيَ في الموقـفيـنِ

جعلـتُ التشـيع فـي آلـه . . . وسـائـل أرجـو بهـا الحَسنينِ

المبحث الثانـي :

الأعمال المُنْجزة على صعيد الأدب النثري الأندلسي

أمثال العوام في الأندلس

يُعدّ كتاب (أمثال العرب) للمفضّل بن محمد الضّبيّ ت ١٢٣هـ ، من أوائل كتب الأمثال التي أُلّفت في عصره ، وحُققت في زماننا ، وقد تفرعت الأمثال إلى :

الأمثال القديمة ، وأمثال المولدين ، وأمثال العامّة التي داخلتها الخرافات والأساطير (٢٠)

وجلّ الكتب التي كُتِبت بالأمثال كانت عيالاً على كتاب المُفضّل الضّبيّ مثل : (كتاب الفاخر) لابن سلمة ، وكتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلاّم ، والدُّرة الفاخرة

لحمزة الأصبهاني ، والزاهر لابن الأنباري ، وجمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ، والوسيط في الأمثال للواحدي ، ومجمع الأمثال للميداني ، والمستقصى في الأمثال للزمخشري .

وتُعد أمثال الشعوب (فصيحها وعاميها) تراثاً فكرياً يجمع بين الأدب والتأريخ والإجتماع ومعارف أخرى يمكن لدارس الأمثال أن يستنبط منها الكثير من الدروس والعِبر ، وهي المرآة العاكسة لمجمل العادات والتقاليد والطبائع لمجتمع دون سواه ، وتتخذ الأمثال أعلى درجات السمو الأخلاقي ، ومن ثمّ تتردى إلى أدنى درجات الانزواء، والانكفاء والتدني ،إذن ـ الأمثال ـ صورة جامعة لنقائض كثيرة تختزنها ذاكرة المجتمع ؛ لتورثها للأجيال من أجل الاستفادة، واتخاذ العظة والعبرة والاطلاع على أحوال أسلافهم ، وأحوال الأمم الأخرى ، للأمن من الهلكة والسقوط في مهاوي الرذيلة ؛ ليكون السعيد من اكتفى بغيره .

والأمثال بين هذا السمو وذلك التردي تجمع تراثاً كبيراً يصلُح لأن يكونَ قواعد اجتماعية ؛ لبناء أصول التعامل اليومي بين أبناء البشر .

وأن أول من سجلّ مادة (لأمثال العوام في الأندلس) هو ابن هشام اللخمي الاشبيلي ت ٥٧٧ هـ ، وقد ضمّ في كتابه (لحن العامّة) مجموعة صغيرة من تلك الأمثال ، وهي بلا شك تحمل بين طياتها قيمة لغوية واجتماعية كبيرة ، وهناك مجموعة من أمثال العامّة كانت في ديوان إمام الزّجالين الأندلسيين ابن قُزْمان ، ويذكر الأهواني عن أهم مجاميع الأمثال الأندلسية هي التي سجّلها أبوبكر محمد بن عاصم القيسي الغرناطي (٧٦٠ ـ ٨٢٩ هـ) في كتابه (حدائق الأزهار في مستحسن الأجوبة والمُضْحكات والحكم والأمثال والنوادر).

وتعكس أمثال ابن عاصم صوراً للمجتمع الغرناطي أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع ، أي قبل عقود قليلة من أُفول نجم آخر معقل من معاقل المسلمين في مملكة غرناطة ، حيث عكست صور الأمثال سخرية المجتمع من الفقهاء ورجال الدين ، وعجرفة الحُكّام وطغيانهم ، وسوء معاملة الخدم والرقيق السود ، والنفور من اليهود ، وانقباض البربر وشراهتهم ، وأزمة تزويج البنات ، ترجمت هذه الأمثال صورة المجتمع الغرناطي الاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية (٢١) ، ورأيت في هذا الباب أن استعرض أمثال العامة التي حققها الدكتور محمد بن شريفة لأبي

يحيى الزجّالي ٦١٧-٦٩٤هـ ، وتكاد هذه الأمثال أن تكون الصورة الأوضح والأوسع لمجتمع غرناطة في القرن السابع للهجري ، والفارق الكبير الذي سجّله الدكتور ابن شريفة هو روح الفكاهة والسخرية الممازحة للغرناطيين التي ضعفت بدورها في أمثال ابن عاصم !

ونسب الدكتور الأهواني مرجعيات الأمثال وأصولها إلى أنها من نتاج المجتمعات البدوية والقروية التي تزداد نسبتها من حيث التداول عمّا هي عليه في المجتمعات المتحضرة من دراسته الرائدة التي عرضتها صحيفة المعهد المصري للدراسات المصرية في مدريد (٢٢)

وعملت الصحيفة على إذاعة هذا العمل ؛ لنشره بين الباحثين والمهتمين ، و تتأتى أهمية هذا العمل من أنه العمل الأول عن موضوع (أمثال العامّة في الأندلس)،التي كانت سائدة وقتذاك ، وأول من اعتنى بالأمثال في الأندلس هو ابن عبد ربه الأندلسي، ثم أبو عبيد البكري ، في حين أن ابن عبد ربه نقل مادته من أبي عبيد القاسم بن سلاّم ، والبكري ، والتزم الاّ يهتم بالأمثال الجارية في بلده ، ثم دراسة الدكتور محمد بن شريفة في (أمثال العوام في الأندلس) لأبي يحيى الزّجالي ٦١٧ - ٦٩٤ هـ (*)

وقد سلّط الضوء في عمله هذا على أمثال العوام في الأندلس ، وهذا اللون من الدراسة يحتاج إلى باحث ذي باع طويل ، ومعرفة باللهجة العامية لهذه المدينة ، أو تلك ، أو لهذا البلد موازنة مع بلد آخر مثلاً ، ولهذا عمل المحقق على الرجوع كثيراً إلى المظان التي تناولت الألفاظ العامية الأندلسية مثلاً في كتب لحن العامة الأندلسية كتاب (لحن العوام / للزبيدي ، وكتاب (لحن العامة) ، لابن هشام اللخمي ، ورجع أيضا إلى المعاجم الخاصة بعامية الأندلس مثل : المعجم المنسوب إلى الراهب القطلوني رمند مرتين ، ومعجم الراهب الأسباني فراي بدرودي ، ومعجم المستشرق الأسباني سيمونيت ، وملحق المعاجم العربية لدوزي ؛ ليخرج لنا هذه المجموعة القيّمة من أمثال العوام في الأندلس (٢٣)

وأن أبز النقاط التي بحثها د. ابن شريف ، وجعلها فصولاً في دراسته هي :

الأول : التعريف بمؤلف كتاب (ري الاوام) وهو لأبي يحيى عبيد الله بن أحمد الزّجالي ، وهو شخصية ضنّت عنه المصادر التي وصلت إلينا خلا ترجمة قصيرة

في كتاب (درّة الحجّال في غرة أسماء الرجال ، لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد المعروف بأبن القاضي المكناسي (ت ١٠٢٥هـ)، وبحث ابن شريفة في كتب التراجم والطبقات والتاريخ والبرامج والرحلات ، مستفيداً من الإشارات الصغيرة التي وردت فيها عن الزجالي ، وما كتبه الزجالي نفسه في أثناء كتابه (ري الاوام) من إشارات أيضاً ، فهو قرطبي من جهة أبيه ، ومن جهة أمه من أسرة بني قطرال الأنصاريين الذين تولوا منصب القضاء في زمن الدولة الموحدية (٢٤)

الثاني : قام د. محمد بن شريفة بتسليط الضوء على كتاب الزجالي (ري الاوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام) ، حيث درس نصوص الكتاب والباعث على التأليف مثل هكذا نوع من التصنيفات ، وأن الزجالي الذي أراد أن يحاكي بها كتاب التمثيل والمحاضرة للثعالبي (٢٥)

الثالث : قدّم فيه د. ابن شريفة دراسة شاملة للأمثال فصيحها وعاميها دراسة تاريخية عن كيفية دخول الأمثال إلى الأندلس ، وكيف اعتنى بها الأندلسيون . (٢٦)

الرابع : دراسة أصول الأمثال العامية في الأندلس ومصادرها ، والأصول التي اشتركت في تكوينها الأمثال العربية القديمة والمولدة ، والأمثال المولدة في الأندلس كانت أقوى من الأمثال القديمة ؛ لطبيعة النسيج الاجتماعي الذي تكوّن بعد الفتح الإسلامي للأندلس (ولعل ذلك راجع إلى ملاءمتها ـ أي الأمثال المولّدة للمزاج الحضري في الأندلس ونشأته الأوضاع الحضرية بين المجتمع الأندلسي ، وبين المجتمعات العباسية حيث ظهرت ألأمثال المولّدة (٢٧)

وتبين أن أصل بعض الأمثال إلى الأخبار والنوادر والأجوبة الموجودة في بعض كتب الأدب قد وصلت أصداؤها إلى أسماع العامة فتمثلوا بها ، وهناك كانت أمثال مولّدة من الأساطير (مشرقية أو مغربية)، وكذلك القصص الديني كان هو الآخر مصدراً من مصادر الأمثال ، ولم يفلت من زمام ذاكرة العوام من الناس كل ما يدور حولهم من أشخاص وأشكال وأحداث ومدن ، ومأثورات سمعية تراثية مثل الشعر المشرقي والمغربي

وقد أثبت د. ابن شريفة من خلال دراسة موازنة هي استمرار وجود كثير من الأمثال الأندلسية في الأمثال الإسبانية إلى يومنا هذا ، ويدل هذا الاستنتاج المذكور سلفاً على

حيوية دراسة د.ابن شريفة ، وتمكنه من ربط دراسته النظرية بواقع الحياة الاسبانية في يومنا هذا . (٢٨)

الخامس : استنتج المحقق طبيعة الحياة الاجتماعية من خلال ألفاظ الأمثال ، التي وجدت في المخطوطة ، فدرس السكان ، وفئاتهم الاجتماعية ،كما صوّرتها الأمثال ، والتقط بعض الأحداث التأريخية كما نوّهت بذلك الأمثال ، وقد تناولت الأمثال : العرب والعجم والبربر وأهل العدوة والمولدين والعجم والصقالبة واليهود والعبيد ، وصوّرت الحكّام مثل السلطان والكاتب والقاضي وصاحب المدينة والشرطة والمحتسب والفقهاء ، وكثير من مظاهر الحضارة مثل الأطعمة والأعياد ومراسم الزواج والتجارة ومشكلاتها والملاهي والألعاب كالزامر والعجايبي والشطرنج . . . الخ .(٢٩)

السادس : وبحث فيه د. ابن شريفة الجانب اللغوي والأدبي للأمثال الأندلسية .

وللأمثال فوائد اجتماعية وتاريخية ، ومن ثمّ لها قيمة لغوية ، وأدبية (وهي بلا شك تضيف مادة جديدة إلى ما هو معروف حتى الآن من نصوص ووثائق في العامية الأندلسية كأزجال ابن قزمان وغيرها من النصوص العامة) (٣٠)

ويُزاد على ما سبق سلسلة مؤلفات الأندلسيين في لحن العامة التي بدأها أبو بكر الزَّبيدي ت ٣٧٩ هـ ، وتبعه ابن هشام اللخمي ت ٥٧٧ هـ ، وابن هانئ السبتي الأشبيلي ت ٧٣٣ هـ ، وابن جزي الغرناطي ت ٧٤١ هـ، وابن الخاتمة ت ٧٧٠هـ، وهناك المعجمات الثلاثة التي أُلّفت في القرون الوسطى ، والتي ضمّت جملة كبيرة من مفردات العامية الأندلسية مثل : المعجم اللاتيني العربي الذي ألفه مجهول في القرن العاشر الميلادي (الرابع للهجرة) ، والمعجم الذي يُنسب إلى الراهب القطلوني ، وسأُسلط الضوء على هذا الفصل بالمقدار الذي يُمثل محل بحثنا من الناحية الأدبية ، فالمثل الأندلسي كغيره من الأمثال عامة له بنية لغوية تقوم على (السجع) في الغالب ، ويبدو أن للسجع في المثل وظيفتين :

أولاهما : إنه حلية بلاغية تُميز المثل العامّي على غرار المثل الفصيح من غيره من الكلام الجاري .

وثانيهما : إنّه حِلية تعليمية ؛ لأن السجع أدى إلى حفظ المثل وتقييده ، فمثال السجع المركب أي المؤلف من فقرتين فأكثر .

(إذا حجّ جارك بع دارك ، وإن حجّ مرتين فبعها بالدَّين) (٣١) .

ويرى د. ابن شريفة أن استعمال السجع في الأمثال الأندلسية لم يكن في أول الأمر ـ أي السجع ـ كذلك وإنما يَمرُّ المثل بمرحلة من الصقل والتهذيب ، ويُضرب مثلا ذلك في المثل الذي رواه الزجالي على صورته الآتية :

(بين أخذ الديك ، وإطلاق ينتف ذنب) وبعد نحو قرنين من الزمن يجيء ابن عاصم فيرويه مسجوعاً على النحو الآتي : (بين أخذ الديك ، وإطلاق ينتف ساق)(٣٢)

ويُلاحظ أن المثل الأندلسي يتعرض إلى عملية التساهل في الرواية ، ومع ذلك فإن الصيغة المُحكمة هي التي تظلّ أكثر استعمالاً من غيرها ، ونقرأ في المثل الأندلسي ضرورة السجع التي تُؤدي إلى استعمال كلمات لامعنى لها ، وربما يصاحبها اختراع أسماء لا وجود لها في الواقع .

وأرى في ذلك ضرورة لفظية تقتضيها ألفاظ المثل ، وإن لم يكن لهذه اللفظة أي معنى ، نحو :

(جاح وماح وقابض الأرواح) ،(٣٣)

وطغت على المثل الأندلسي الخصوصية البلدية والطابع المحلي ؛ لأنها منتزعة من صميم البيئة التي يعيشونها ؛ لذا نرى مثلاً يصفون حال (المعربد) الذي لا يُميز بين خطل القول من صوابه بحال يُشبهونه بـ(وادي شُوش المضطرب في الفيضان) :

(بَحل وادي شُوش يرمي الأجراف على روح) (٣٤)

وينزع الأندلسيون في أمثالهم من تشبيهات تنزع منزع التصوير الهزلي ، وهذا نابع فيما أرى من الوسط الشعبي لعوام الناس ، إذ إن الروح الهزلية والفكاهة تتمكن من بسطاء الناس ، وتصبح جزءاً من طبيعتهم وشخصياتهم، ويرى المقّري في نفحه أوسع من هذه النظرة في طبائع أهل الأندلس فيقول :

(ولأهل الأندلس دعابة وحلاوة في محاوراتهم وأجوبة بديهية مُسكتة ، والظرف فيهم والأدب كالغريزة ، حتّى في صبيانهم ويهودهم ، فضلاً عن علمائهم وأكابرهم) (٣٥)

، وسأعرض عن الألفاظ الماجنة والفاضحة لسمو مكانة الجامعة وعلو كعبها وشأنها (٣٦)

وينقل لنا أبو يحيى الزجالي أنموذجا من الأمثال التي تنزع نزوع الهزل والفكاهة، وهو :

(بحل رايس في نو : يشير بلحيته ، وينطح بُسّرة) ،(٣٧)

وأضم رأيي إلى رأي د. ابن شريفة في أن الأمثال في التراث العربي في المشرق والمغرب لم تحظ بدراسات من قبيل التطبيق البلاغي والتحليل النقدي ، وكذلك الموضوعي ، وهي بهذه الحال تنتظر جهد باحثينا؛ ليقوموا بهذا العمل الأدبي لتسدّ تلك الثغرة في المكتبة العربية والأندلسية .

ويدخل أسلوب الحوار في الأمثال الأندلسية ، وهو بحكم بنية المثل القائمة على الإيجاز ، وهو حوار قصير يتركب من شقين أولهما : السؤال ، وثانيهما الجواب ومثال ذلك :

(أُقل (قيل) للأسود : أشكِتَّعْملْ لو كنت سُلطان ؟ قال : نَخُذْ (أخذ) ألف مثقال ونَهْربْ !)(٣٨)

مقامة العيد

لأبي محمّد عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله الأزدي

المعروف بابن المرابع(*)

توجهت عناية الأندلسيين من أُدباء وشعراء وكُتّاب صوب مدن المشرق قِبَل بغداد والبصرة والكوفة ودمشق والقاهرة ، وغيرها من أمصار الإسلام التي تحتضن العلماء والمصنّفات وطلبة العلم ، فأعدّوا العِدّة ، وباشروا الرحلة ؛ لأداء مناسك الحج المقدّسة وطلب العلم ، ولقاء العلماء الأعلام أنفسهم ، ومجاورتهم ، وأخذ مصنفاتهم مباشرة منهم رواية دون وسيط فمما أخذه الأندلسيون ما نحن بصدده المقامات الحريرية ، إذ نزلوا بغداد والبصرة وأخذوا عن الحريري مقاماته مباشرة منه في منزله بغداد ، (٣٩)

وممن لقي أبا محمد القاسم البصري(ت ٥١٦هـ) الحريري أبو الحجاج بن يوسف ... القضاعي الأبدي ، فيقول : (حدّثني الشيخ الإمام الأجل الرئيس الأوحد أبو محمد الحريري (قدّس روحه) قراءة منِّي عليه وسماعا غير مرة بمنزله ببغداد حرسها الله في شوال من سنة ٤٠٥ هـ (٤٠)

وقد تتبعت سماعات الأندلسيين لمقامات الحريري وأحصيتها مع أعلامها (٤١)

أهمية مقامة العيد في التراث النثري الأندلسي

تُعدّ مقامة العيد للأزدي لوناً جديداً في فن المقامة ليس على مستوى الأدب النثري الأندلسي ، بل على مستوى الادب النثري المشرقي ٬ لِما نتج عن هذة المقامة من مستوى إجتماعي واضح صوَّر لنا مقطعاً من الحياة الاجتماعية (الشعبية) لمجتمع مدينة غرناطة في النصف الاول من القرن الثامن للهجرة ، ومستوى حضاريّ بيّن فيها كاتبها هيبة الدولة وسلطتها في الأسواق اليومية التي هي محطة تعامل الناس فيها يوميا ، الذي يتطلب بسط لون من الأمن ؛ لتسيير مصالح الناس كما ينبغي ، ومن ثم يتم تحجيم دور المحتكرين والمتلاعبين بأرزاق الناس وقوتهم اليومي .

إن مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد حين قدّمت مقامة العيد (٤٢) للباحثين المتخصصين ، وللقارئ عموماً ، فهي بعملها هذا قد أهدت عملاً فنياً رائداً في بابه ، ونادراً في مضمونه ؛ لكون منشئ المقامة اتخذ من واقع الحياة الغرناطية ، وبالدقة الحياة الشعبية اليومية في أحد أسواق غرناطة أنموذجاً واقعياً نفث فيها أسلوبه النثري السلس بصورة يجعل قارئ المقامة ، وكأنه يعيش في أجواء المقامة من حركة السوق ، ومعاملة الناس وأصحاب المحال ، ومشهد الأمين وصاحب الشرطة ، والرجل الذي اشترى أُضحية العيد ، وكيف عاثت هذه الأُضحية فساداً في محل الفخار من تحطيم الطواجين والقدور والفخار المالقي الذي طبقت شهرته الآفاق ، ويُصور لنا صورة القصّاب (الجزار) الذي يرتدي زيّه وهو ما يعكس صورة حضارية لمنظر دقيق وحسّاس ؛ لأنّه مرتبط بطعام الناس وهو مانصّه (إلى أن مررتُ بقصّاب في مجزره ، قد شدَّ في وسط مئزره ، وقصّر أثوابه حتّى كشف عن ساقه ، وشمّر عن ساعديه حتّى أبدى مِرْفقيه) ، وتلك من الصور المفعمة

بالحركة والحيوية مضيفاً إليها صورة الباعة في تلك السوق وصفات أخلاقهم ، وما ترتب على ذلك الموقف من دخول صاحب الشرطة وما تبع ذلك من حوار ووو ...

وقد اشتهرت مدينة غرناطة في عصر بني الأحمر بالأسواق المنظمة ، والأسواق المُتخصصة ، وكانت هناك الأسواق الإسبوعية مثل : سوق الخميس في وسط غرناطة ، وسوق الثلاثاء في مدينة جيّان ، فضلاً عن أسواق أخرى لا مجال لذكرها (٤٣) ، والأسواق هذه على تنوع بضائعها ، واختلاف مواقعها ، وكثرة عديدها ، فهي بحق بها حاجة إلى من ينظم شؤونها ، وشؤون البضائع ، وحقوق (المستهلكين) من عامة الناس ، وهذا ما يُعرف ب(نظام الحِسْبة) الذي يُعرف عند الأندلسيين بـ(صاحب السوق) وفي هذا يقول المقريّ : و(لهم في أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ،ويتدارسونها كما تُتَدارس أحكام الفقه ؛ لأنها تدخل عندهم في جميع المبتاعات)(٤٤) ، وقد أكد ابن عباس الجرسيفي بقوله :

إن ديوان الحِسبة من أعظم الدواوين ، وليس بعد خُطة القضاء أشرف من خُطة الحِسبة) (٤٥) ، ونظام السوق في مدينة غرناطة يقوم على أساس أن لكل مهنة سوق خاص بها كما هو مشهور في أسواق الأندلس مثل: سوق الفخارين (٤٦) ، وسوق الغزل (٤٧) وسوق العطر (٤٨) ، وسوق الصاغة والحدادين (٤٩) ، وأن لكل مهنة من هذه المهن والحِرف رئيس أو شيخ يُسمّى (أمين) (٥٠) ، ويتم تعيينه ـ أي الرئيس أو الأمين ـ إما بانتخاب أهل الحِرف أو عن طريق المُحْتسب ، فيكون مرضياً من قبل القاضي والمُحْتسب ، وبهذا الصدد يقول السقطي : (ويُقدّم من ثقات أهل الأسواق ، ووجوه أرباب الصنائع من تُعرف ثقته ، وينفع المسلمين نصحه ومعرفته) (٥١) .

****

نتائج البحث)

ركزت الدراسة على أبرز النقاط الأدبية التي شكّلت منعطفا إبداعياً في مسيرة التراث الأدبي الأندلسي بمساهمة نشره في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، منها :

(١) نشر تحقيق ديوان الرصافي البلنسي ت ٥٧٢هـ ، وإعلانه ؛ يُعدُّ خطوة رائدة للمهتمين والمتخصصين في الأدب الأندلسي .

(٢) الكشف عن منهجية الرصافي البلنسي التي سار بها على خطى ابن خفاجة وابن الزقاق البلنسي وهي طريقة القصائد والمقطعات .

(٣) اشتهر الرصافي البلنسي بأبرز ميزتين امتاز بهما من شعراء الأندلس ، الأولى : إنه لم يتكسب في شعره ، والثانية : بروز ظاهرة شعر الحنين إلى الوطن أي بلده بلنسية .

(٤) يُعدُّ تحقيق ديوان الملك يوسف الثالث ملك غرناطة ت ٨١٩هـ ، كشفاً رائداً في بابه ؛ نتيجة لانقطاع الأخبار عن وجود شعراء و دواوين منذ زمن لسان الدين ابن الخطيب ت ٧٧٦ هـ .

(٥) ضمّ الديوان قصيدتين في رثاء أهل البيت (عليهم السلام) ولا سيما واقعة الطف .

(٦) وصول ديوان متكامل من الشعر في القرن التاسع للهجرة الشريفة لأمر مُلفت للنظر ، ويستحق الوقوف عليه ، ودراسته دراسة نقدية وبلاغية وموضوعية .

(٧) إن تحقيق مقامة العيد للأزدي (ت ٧٥٠هـ)، وهي مقامة إجتماعية صوّرت لنا جزءاً من الحياة اليومية الشعبية في مدينة غرناطة ، ويُعدُّ ذلك إلتفاتة ذكية من مُنْشىء المقامة بحيث وظّف الواقع اليومي لمتن المقامة ، بعدما كانت قائمة على الخيال ، أو الرمزية للواقع ، وعرض لكثير من مظاهر التحضر وهيبة الدولة لمدينة غرناطة آنذاك بشكلها الرّسمي.

(٨) قلّة الدراسات التي اهتمّت بأمثال العوام في الأندلس ، عدا دراستي د.عبد العزيز الأهواني لابن هاشم اللخمي وابن عاصم ، ود.محمد بن شريفة لأبي يحيى الزّجّال ، والموضوع بكر يحتاج إلى كثير عناية وصبر وأناة ؛ ليخرج بتائج كثيرة عن الأدب الاجتماعي لطبيعة المجتمع الأندلسي في مملكة غرناطة.

****

الهوامش

(١) صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد : المقدمة / ص هـ .

(٢) ينظر أشعار عربية على جدران ونافورات الحمراء ، نشرها وجمعها شعراً وكتب مُقدمتها : إميليو غرسية غومس، كلمة تحية قدّم بها الكتاب د.صلاح فضل ، أسماء الأعلام المحصورة بين قوسين صغيرين هي من وضع الباحث .

(*)الرصافي البلنسي : أبو عبد الله محمد بن غالب ت ٥٧٢ هـ ، أصله من رصافة بلنسية بها وُلِد ونشأ ، ثم رحل إلى مالقة ، واشتهر بشعر الحنين إلى الوطن ، يُنظر ترجمته في : المُغرب : ٢/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨ ،

والتكملة : ٥٢٠ ، وقد استدرك د.محمد عويد الساير في كتابه المستدرك على صُنّاع الدواوين والمجموعات الشعرية ،ص ١٢٥-١٤٧، تموز للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م .

(٣) صحيفة معهد الدّراسات الإسلامية في مدريد ، المجلدان التاسع والعاشر ، ١٩٦١ ـ١٩٦٢ : ص ٣٨٣ .

(٤) ديوان الرصافي البلنسي ، ط / دار الثقافة : ص ١٢٢) .

(٥) المصدر السابق : ص ١٢٣ .

(٦) المصدر السابق : ص ١٣ .

(٧) المصدر السابق : ص ١٢ـ١٣ .

(٨) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلدان التاسع والعاشر : ١٩٦١- ١٩٦٢ ، ص ٣٨٣ .

(٩) ديوان الرصافي البلنسي : ص١٦ ، ١٧ .

(١٠) المصدر السابق : ص١٩ .

(١١) المصدر السابق : ص ١٣٧ - ١٤٠ ، فهرس القوافي ، ط / ١٩٨٣م .

(*) الملك يوسف الثالث ت٨١٩هـ، حفيد الغني بالله ، وهو الثالث عشر من ملوك بني الأحمر النصريين أصحاب غرناطة ت ٨١٩ هـ ، امتاز شعره بالإباء ن وذكر أنساب الملوك (الفخر) ، وقد رثى أهل البيت٠ (عليهم السلام) في قصيدتين ذكر فيهما واقعة الطف الأليمة ، وفي هذا دليل على وجود التشيع في دول الأندلس أنئذٍ :يُنظر : الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى : لأبي العباس شهاب الدين أحمد ابن خالد الناصري ت ١٣١٥ هـ / ٢/ ١٤٢ - ١٤٨ .

(١٢) ديوان الرصافي البلنسي ، ط/١ ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٦٠

(١٣) ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث ، المقدمة : ص/ ظ .

(١٤) المصدر السابق : المقدمة صفحة / ر .

(١٥) المصدر السابق : المقدمة صفحة / غ .

(١٦) المصدر السابق : ص ٦٣ .

(١٧) المصدر السابق : ص ٦١ ـ ٦٢ .

(١٨) المصدر السابق : ص ١٣٣ .

(١٩) المصدر السابق : ص ١٣٤ .

(٢٠) أمثال العرب : ص٥ ، ط/ ٢ ، بيروت / لبنان ، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.

(٢١) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد : مج التاسع والعاشر ، ١٩٦١-١٩٦٢،ص ٤١١.

(٢٢) أمثال العامة في الأندلس عبد العزيز الأهواني (ضمن مجموعة دراسات مهداة إلى الدكتور طه حسين في عيد ميلاده السبعين ، وقد نشرته دار المعارف في القاهرة سنة ١٩٦٢م ، ونشرت صحيفة المعهد عرضاً لذلك في : مج ٩ ـ١٠، س ١٩٦١ ـ ١٩٦٢ ، مدريد ، ص ٤١١ .

(*) الشيخ الفقيه أبو يحيى عبيد الله بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عبيد الله الزّجاليّ ٦٩٤ هـ ، الأديب الناظم الثائر القرطبي ، يُنظر في ترجمته مقدمة المحقق للديوان عبد الله كنون ، ص٣ وما بعدها .

(٢٣) أمثال العوام في الأندلس ، لأبي يحيى الزّجالي ، دراسة د. محمد بن شريفة ، المقدمة ص/ ب .

(٢٤) المصدر السابق : ق ١/ ص ٥ .

(٢٥) المصدر السابق : ق ١ / ص و .

(٢٦) المصدر السابق : ق ١ / والصفحة نفسها .

(٢٧) المصدر السابق : ق ١ / ص ح .

(٢٨) المصدر السابق : ق ١ / ص ح ، ط .

(٢٩) المصدر السابق : ق ١ / ص ط ، ي .

(٣٠) المصدر السابق : ق١/ ص ٢٧٣ .

(٣١) المصدر السابق: ق١ /ص ٣٠٠ ، وشرحه في : ق٢ / ص ط .

(٣٢) المصدر السابق : ق ١ / ص ٣٠١ ، وشرحه في ق ٢ / رقم المثل ١٢٤.

(٣٣) المصدر السابق : ق ١ / ٣٠١ ، وشرحه في ق ٢ / رقم المثل ٧٧٩ .

(٣٤) المصدر السابق : ق ١ /ص ٣٠١ ، ق ٢/ رقم المثل ٦٤٠ .

(٣٥) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : ج٤/ ٣٢٥، تح محمد محيي الدين عبدالحميد .
(٣٦) ينظر ، أمثال العوام : أواخر القسم الأول .

(٣٧) أمثال العوام : ق١ / ص ٣٠٢ ، ق ٢/ رقم المثل : ٦٥٢ .

(٣٨) المصدر السابق : ق ١ / ص٣٠٢ ، و ق٢/ رقم المثل ٦٥ .

(*)عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله الأزدي ت ٧٥٠ هـ من أهل بلِّش ، كنيته أبو محمد ، ويُعرف بابن المُرابع ، من أدباء البادية ، جمع بين النثر والنظم وكان متكسبا في شعره ، تُنظر الإحاطة في أخبار غرناطة : ٤٢١ ـ ٤٣٢ ، وديوان ملك غرناطة / يوسف الثالث م عبد الله كنون ، مقدمة التحقيق / ص س وش .

(٣٩) ينظر، فن المقامات بالأندلس نشأته وتطوره وسماته، د. قصي سعيد عدنان الحسيني : ص١٦ ، وللتوسع ينظر من الصفحة نفسها : هـ١ و٢ .

(٤٠) فهرسة ما رواه عن شيوخه ، لابن خير الإشبيلي ، ٥٠٢ـ٥٧٥هـ :ص ٣٨٧ ، وص ٤٠٥ .

(٤١) ينظر : فن المقامات بالأندلس : ص ١٩ ـ ٢٤ .

(٤٢) مج ٢ ، ع ١ـ٢ ، ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م .

(٤٣) ينظر ، النشاط الاقتصادي في سلطنة غرناطة ٦٣٥ ـ ٨٩٧ هـ ، د. زمان عبيد ونّاس : ص ٢٠١ ـ ٢١٠ .

(٤٤) نفح الطيب : شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني ، تح : د. إحسان عباس ، دار صادر ، ١٩٦٨ : ج ١/ ٢١٨ ـ٢١٩ .

(٤٥) ثلاث رسائل في آداب الحسبة والمحتسب (بضمنها رسالة الجرسيفي) تح ، ليفي بروفنسال .

(٤٦) الإحاطة في أخبار غرناطة / ابن الخطيب ، عنان ، الشركة المصرية : ج ٣/ص ٦٩ .

(٤٧) الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتأريخ فاس ، لابن أبي زرع الفاسي : ص ٣٥٢ ، والإحاطة / عنان/ الشركة المصرية : ١/ ٢٨٧ .

(٤٨) الإحاطة في أخبار غرناطة : عنان / الشركة المصرية : ١/ ٢٨٦ .

(٤٩) آخر أيام غرناطة ، لمؤلف مجهول (من كُتّاب القرن التاسع للهجرة)، وهو كتاب نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر.

(٥٠) الإحاطة في أخبار غرناطة ، عنان ،الشركة المصرية : ٢/ ٢٨٧ ، ونثير الجُمان في شعر من نظمني وإياه الزمان : ٢٠٦ ، وللاستزادة ينظر : الحِسبة في الأندلس ، محمد عبد الله المعمودي .

.

(٥١) آداب الحِسْبة ، أبو عبد الله محمد بن أبي محمد المالقي (ت في القرن السادس للهجرة) تح ليفي بروفنسال : ص٩ ، والنشاط الاقتصادي في سلطنة غرناطة ٦٣٥ ـ ٨٩٧هـ ، د.زمان ونّاس عبيد.

&&&&&&&&&&&&&&&&&&&&&&&&&&&&&&&&&&&&

ثبت المصادر والمراجع

(١) آخر أيام غرناطة ، لمؤلف مجهول (من كُتّاب القرن التاسع للهجرة)، وهو كتاب نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر ، تح : محمد رضوان الداية / دار حسّان للطباعة والنشر ، ط١ ، دمشق ، ١٩٨٤م .

(٢) آداب الحِسْبة ، أبو عبد الله محمد بن أبي محمد المالقي (ت في القرن السادس للهجرة) تح ليفي بروفنسال ، المطبعة الدولية ، باريس ، ١٩٣٠.

(٣) الإحاطة في أخبار غرناطة / لسان الدين ابن الخطيب ت٧٧٦هـ ، محمد عبد الله عنان ، الشركة المصرية للطباعة والنشر ، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٧٣م .

(٤) الحِسبة في الأندلس ، محمد عبد الله المعمودي ، بغداد ، د . م ، ١٤٣١ هـ ـ ٢٠١٠ م .

(٥) أشعار عربية على جدران ونافورات الحمراء ، نشرها وجمعها شعراً وكتب مُقدمتها : إميليو غرسية غومس ، منشورات المعهد المصري للدّراسات الإسلامية في مدريد ، مدريد ، ١٩٨٥م.

(٦) أمثال العامة في الأندلس ، عبد العزيز الأهواني (ضمن مجموعة دراسات مهداة إلى الدكتور طه حسين في عيد ميلاده السبعين ، وقد نشرته دار المعارف في القاهرة سنة ١٩٦٢م، ونشرت صحيفة المعهد عرضاً لذلك في : مج ٩ ـ١٠، س ١٩٦١ ـ ١٩٦٢ ، مدريد.

(٧) أمثال العرب : المفضل الضبي ، ط/ ٢ ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٣هـ ـ١٩٨٣م

(٨) أمثال العامة في الأندلس ، لأبي يحيى الزّجالي ت٦١٧ ـ ٦٩٤هـ ، دراسة وتحقيق الدكتور محمد بن شريفة ، طُبع بمساعدة وزارة الدولة المُكلّفة بالشؤون الثقافية ، فاس ، ١٩٧٥م .

(٩) الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتأريخ فاس ، لابن أبي زرع الفاسي ، دار المنظور / الرباط ، ١٩٧٢م .

(١٠) ثلاث رسائل في آداب الحسبة والمحتسب (بضمنها رسالة الجرسيفي) تح ، ليفي بروفنسال ، مط / المعهد العلمي الفرنسي ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

(١١) ديوان الرصافي البلنسي لأبي عبد الله محمد بن غالب ت ٥٧٢هـ ، تح الدكتور إحسان عباس ، ط/١ ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٦٠.

(١٢) ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث ت ٨١٩هـ ، تح عبد الله كنون ، ط ٢ ، مكتبة الإنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٥م .

(١٣) مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية ، ع ١ ، س ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م ، ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث ت ٨١٩هـ .

ـــــ صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، مج ٢ ع ١ـ٢ ، س ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م ، مقامة العيد اعبد بن إبراهيم الأزدي ت ٧٥٠هـ .

ـــــ صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، مج ٩ ـ ١٠ ، مدريد ، س ١٩٦١ ـ ١٩٦٢م ، ديوان الرصافي البلنسي ت ٥٧٢هـ . وأمثال العامّة في الأندلس ، عبد العزيز الأهواني .

(١٤) فن المقامات بالأندلس نشأته وتطوره وسماته ، د. قصي سعيد عدنان الحسيني ، ط ١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م .

(١٥) فهرسة ما رواه عن شيوخه ، لابن خير الإشبيلي ، ٥٠٢ـ٥٧٥هـ ،اعتنى به فرنشسكة قدارة زيدين ، دار ، الأفاق الجديدة ، بيروت ، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م .

(١٦) المستدرك على صُنّاع الدواوين والمجموعات الشعرية د.محمد عويد الساير ، تموز للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م .

(١٧) نثير الجُمان في شعر من نظمني وإياه الزمان ، تح ، محمد رضوان الداية ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، بيروت ، ١٩٧٦م .

(١٨) النشاط الاقتصادي في سلطنة غرناطة ٦٣٥ - ٨٩٧هـ ، د. زمان عبيد ونّاس ، ط١ ، دار الرضوان للنشر والتوزيع ، ومؤسسة دار الصادق الثقافية ، عمان / الأردن ، والحلة / العراق ، ط ١ ، ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م .

(١٩) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني ، تح : د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨ .

(٢٠) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : تح محمد محيي الدين عبد الحميد .

تمَّ بحمد الله لأربع وعشرين من جمادى الأولى من عام ألف وأربعمائة وأربعة وثلاثين من الهجرة الشريفة

الموافق لخمس خلون من نيسان عام ثلاثة عشر وألفين للميلاد .